

تأملات في قصة الميلاد

أولاً. أهنتكم يا أخوتي جميـعاً بـدء عام جـديد. جـعله الله عـاماً مـباركاً مـقدساً تحيـون فيه حـيـة مـقـبـولة من الله. كما أهـنـتـكم بـعـيدـ مـيلـادـ السـيـدـ المـسـيـحـ لـهـ المـجـدـ. وـماـ يـحـمـلـهـ مـيلـادـهـ مـنـ إـيـحـاءـتـ وـمـنـ معـانـيـ وـدـرـوـسـ روـحـيـةـ..
ونـرـجـوـ لـبـلـادـنـاـ - فـيـ هـذـهـ المـنـاسـبـةـ - كـلـ خـيرـ مـصـلـينـ إـلـىـ اللهـ أـنـ يـحـلـ مـشـاكـلـهـ الـاقـتصـاديـهـ وـيـمـنـحـهاـ الرـخـاءـ. وـيـسـبـغـ عـلـيـهـاـ مـنـ جـوـودـهـ وـكـرـمـهـ سـلامـاًـ وـطـمـانـيـةـ. وـيعـزـيـ أـسـرـاتـ ضـحـايـاـ الـزـلـزالـ فيـ اـيـرانـ. وـضـحـايـاـ الطـائـرـةـ فيـ لـبـنـانـ وـفـيـ شـرـمـ الشـيـخـ. وـيـنـعـمـ بـالـسـلـامـ بدـلـاـ مـنـ جـوـهـ المـضـطـرـبـ فيـ اـعـرـاقـ وـفـيـ فـلـسـطـيـنـ وـفـيـ بـعـضـ بـلـادـ اـفـرـيـقيـاـ. وـلـتـكـ بـرـكـةـ الـربـ عـلـىـ كـلـ مـوـضـعـ فـيـ أـنـحـاءـ الـعـالـمـ.

وكـماـ وـلـدـ السـيـدـ المـسـيـحـ فـيـ عـالـمـ مـظـلـمـ. وـأـشـرـقـ عـلـيـهـ بـنـورـهـ..
هـكـذـاـ فـلـيـمـنـحـ اللهـ الـاستـنـارـةـ لـلـعـالـمـ الـآنـ. وـبـرـشـدـهـ إـلـىـ سـوـاءـ السـبـيلـ.. وـلـدـ المـسـيـحـ فـيـ لـيـلـةـ
بـارـدـةـ جـداـ مـنـ لـيـالـيـ الشـتـاءـ. وـوـسـطـ مـجـتمـعـ شـمـلـتـهـ الـبـرـودـةـ الـرـوـحـيـةـ فـتـرـةـ طـوـيـلـةـ مـنـ الـزـمـنـ. بـلـاـ
صـلـةـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ اللهـ. وـبـلـاـ أـنـبـيـاءـ. وـبـلـاـ مـعـونـةـ مـنـ الـرـوـحـ. قـالـ عـنـهـ المـسـيـحـ فـيـماـ
بـعـدـ:
"جـيلـ فـاسـقـ وـشـرـيرـ يـطـلـبـ آـيـةـ وـلـاـ تـعـطـيـ لـهـ". جـيلـ حـارـبـ المـسـيـحـ وـحـارـبـ مـعـجزـاتـهـ وـوـصـاـيـاهـ.
لـذـكـ قـيـلـ عـنـهـ إـنـ "الـنـورـ أـضـاءـ فـيـ الـظـلـمـةـ. وـالـظـلـمـةـ لـمـ تـدـرـكـهـ. إـلـيـ خـاصـتـهـ جـاءـ. وـخـاصـتـهـ لـمـ
تـقـبـلـهـ":..

وـعـلـىـ الرـغـمـ مـنـ ظـلـمـةـ الـعـصـرـ. أـحـيـطـ الـمـيـلـادـ الـمـجـيدـ بـمـجـمـوعـةـ مـنـ الـقـدـيـسـينـ.
نـذـكـرـ مـنـ بـيـنـ هـؤـلـاءـ الـقـدـيـسـينـ زـكـرـيـاـ الـكـاهـنـ وـزـوـجـتـهـ الـيـصـابـاتـ. وـكـيـفـ بـشـرـهـمـاـ الـمـلـاـكـ بـمـيـلـادـ اـبـنـهـمـاـ
يـوـحـنـاـ الـمـعـمـدـاـنـ "وـكـانـ كـلـاهـمـاـ بـارـيـنـ أـمـامـ اللهـ.. سـالـكـيـنـ فـيـ جـمـيـعـ وـصـاـيـاـ اللهـ بـلـاـ لـوـمـ". وـإـلـيـ
جـوارـهـمـاـ وـجـدـ يـوـسـفـ النـجـارـ وـسـمـعـانـ الشـيـخـ. وـحـنـةـ اـبـنـةـ فـنـوـئـلـ الـعـابـدـةـ فـيـ الـهـيـكـلـ بـأـصـوـامـ
وـصـلـوـاتـ لـيـلـاـ وـنـهـارـاـ.
وـمـعـ هـؤـلـاءـ، عـاشـتـ الـقـدـيـسـةـ الـعـذـراءـ أـطـهـرـ اـمـهـرـ فـيـ الـوـجـودـ. الـتـيـ اـسـتـحـقـتـ أـنـ رـوـحـ اللهـ يـحـلـ
عـلـيـهـ. وـقـوـةـ الـعـلـيـ تـظـلـلـهـاـ. وـالـتـيـ بـشـرـهـاـ بـمـيـلـادـ اـبـنـهـاـ : الـمـلـاـكـ جـبـرـائـيلـ. وـكـانـتـ الـوـحـيـدـةـ فـيـ
الـعـالـمـ الـتـيـ لـدـتـ مـيـلـادـاـ بـتـولـيـاـ. بـمـعـجـزـةـ لـمـ تـحـدـثـ مـنـ قـبـلـ. وـلـمـ تـتـكـرـرـ فـيـمـاـ بـعـدـ..
كـلـ أـلـئـكـ كـانـواـ مـوـجـودـيـنـ فـيـ عـصـرـ وـاحـدـ. هـوـ وـقـتـ مـيـلـادـ الـمـسـيـحـ.

وـحـودـ أـلـئـكـ الـقـدـيـسـينـ فـيـ ذـلـكـ الـعـصـرـ الـمـظـلـمـ يـعـطـيـ رـجـاءـ بـأـنـ رـوـحـ اللهـ يـعـمـلـ حـتـىـ
فـيـ الـعـصـرـ الـخـاطـيـرـ الـمـبـتـدـعـ عنـهـ.
إـنـ الـفـسـادـ السـائـدـ فـيـ ذـلـكـ الزـمـنـ. لـمـ يـكـنـ عـقـبـةـ تـمـنـعـ وـجـودـ أـلـئـكـ الـأـبـرـارـ فـيـهـ. كـمـاـ أـنـ فـسـادـ
سـادـوـمـ مـنـ قـبـلـ. لـمـ يـمـنـعـ وـجـودـ رـجـلـ بـارـهـ لـوـطـ. وـفـيـ كـلـ جـيلـ فـاسـدـ يـسـتـحـقـ طـوـفـانـاـ لـيـغـرـقـهـ.
لـابـدـ مـنـ وـجـودـ اـنـسـانـ بـارـ مـثـلـ نـوـحـ لـيـشـهـدـ لـلـرـبـ فـيـهـ. فـالـلـهـ لـاـ يـتـرـكـ نـفـسـهـ بـلـاـ شـاهـدـ..
وـهـكـذـاـ كـانـ الـعـصـرـ الـذـيـ وـلـدـ فـيـهـ الـمـسـيـحـ.
كـانـ رـوـحـ اللهـ يـعـمـلـ - وـبـخـاصـةـ وـبـسـطـ مـخـتـارـيـهـ - لـكـيـ يـمـنـحـمـ حـيـاةـ النـصـرـةـ عـلـىـ ذـلـكـ الـجـوـ. وـلـكـيـ
يـقـيمـهـمـ شـهـوـدـاـ لـهـ. فـاـسـتـحـقـواـ أـنـ يـرـوـاـ مـلـائـكـةـ . وـأـنـ يـتـسـلـمـواـ رـسـالـاتـ إـلـهـيـةـ.
يـضـافـ الـيـهـمـ الـرـعـاءـ وـالـمـجـوسـ الـذـيـنـ عـاصـرـوـ الـمـيـلـادـ.

وـكـانـ كـلـ أـلـئـكـ الـقـدـيـسـينـ مـنـ نـوـعـيـاتـ مـتـعـدـدـةـ

* كانوا من نوعيات تختلف في السن. فمنهم سمعان الشيـخـ. وكان طاعـناـ جـداـ فيـ السنـ.
وزـكـرـيـاـ والـيـصـابـاتـ "وـكـانـ كـلـاهـمـاـ مـتـقـدـمـيـنـ فـيـ اـيـامـهـماـ". وـحـنـةـ اـبـنـةـ فـنـوـئـلـ. وـكـانـتـ أـرـمـلـةـ مـنـ نـحوـ
أـرـبـعـ وـثـمـانـيـنـ سـنـةـ. إـلـيـ جـوارـ الـقـدـيـسـةـ الـعـذـراءـ وـهـيـ شـابـةـ صـغـيـرـةـ. وـيـوـحـنـاـ بـنـ زـكـرـيـاـ وـهـوـ طـفـلـ
رـضـيعـ..

* وكانت هذه المجموعة من الأبرار. مـتـنـوـعـةـ مـنـ جـهـةـ الـعـملـ.
كان منهم الكاهـنـ مـثـلـ زـكـرـيـاـ. وـالـنـجـارـ مـثـلـ يـوـسـفـ. وـسـمـعـانـ الشـيـخـ كانـ مـنـ عـلـمـاءـ الـكـتـابـ أوـ
عـلـمـاءـ الـلـاهـوـتـ. وـكـانـ الـمـجـوسـ مـنـ عـلـمـاءـ الـفـلـكـ. وـإـلـيـ جـوارـهـمـ مـجـمـوعـةـ مـنـ الـرـعـاءـ. وـكـانـتـ
الـيـصـابـاتـ "سـتـ بـيـتـ".

وـحـيـاةـ الـبـرـ شـمـلـتـ الـكـلـ. بـغـضـ النـظـرـ عـنـ السـنـ أوـ نـوـعـ الـعـملـ.
مـاـ يـدـلـ عـلـىـ أـنـ اللهـ لـلـجـمـيعـ. يـدـعـوـ الـكـلـ إـلـيـ بـرـهـ. وـإـلـيـ مـلـكـوـتـهـ.

وكان أولئك الأبرار متنوعين من جهة الحياة الزوجية:

كان زكريا واليصابات زوجين. وكان يوسف ومريم مخطوبين. وكانت حنة ابنته فتوئيل أرملة. ولا شك أن سمعان الشيخ كان أرملًا. والعذراء كانت بتولًا. ويوحنا بن زكريا صار بتولًا أيضًا. وفي صورة واحدة. اجتمع المتزوجون والمترملون والمخطوبون والبيتوليون. كلهم لهم نصيب في الرب. وكلهم لهم نصيب في حياة البر. كذلك كان من بينهم الرجل والمرأة والطفل والكل فرحاً بميلاد المسيح. كما فرح الرعاة بذلك. وكما فرح الم蛟وس.

وكان ميلاد السيد المسيح مناسبة فرح:

فرح الملائكة بميلاده. وانشدوا نشيدهم الخالد "المجد لله في الأعلى. وعلى الأرض السلام، وفي الناس المسرة". ودعوا الرعاة أيضاً للاشتراك معهم في الفرح. لأنه فرح لجميع الشعب. والعذراء فرحت. وعائلة زكريا الكاهن فرحت. وما زال العالم يفرح إنه فرح بيده عهد جديد. تظاهر فيه مبادئ جديدة وقيم سامية عالية يقدمها السيد المسيح للعالم.. وظهرت في عطنه الشهيرة على الجبل. وفي سائر عطائه وتعاليمه. وفي ما أودعه في قلوب تلاميذه من تعليم. علي أن هناك دروساً عميقه نتعلمنها من قصة الميلاد. وما أحاطت بها من أحداث. وما نتعلمها أيضاً من حياة السيد المسيح علي الأرض..

من الدروس العامة التي نتعلمها من قصة الميلاد:

عدم الاهتمام بالمظاهر:

يظهر هذا جلياً من ميلاد السيد المسيح في بلدة صغيرة تدعى بيت لحم. وفي مكان حقير هو مزود بقر. وفي يوم لم يعلن للناس ما زالوا يختلفون في موعده.. كما يولد بدون احتفالات ارضية. كما يحدث لسائر الناس. استعاضت عنها السماء بحفل من الملائكة والجند السمايين. كما ولد من أسرة فقيرة. وفي رعاية رجل نجار. وقيل عن يوم ميلاده "لم يكن له موضع في البيت". وحتى الآن لا تزال صور الميلاد تبين المزود وما يحيط بالفرش القش من حيوانات. ولد في يوم شديد البرد. لم يجد فيه أقmetة كافية ولا دفناً.

كل ذلك نأخذ منه درساً روحاً. وهو أننا بالبعد عن المظاهر الخارجية ندخل في مشاعر الميلاد. بعيداً عن العظمة والترف.

فالعظمة الحقيقة ليست في المظاهر الخارجية من غني وملابس وزينة.. وباقى أمثال هذه الأمور التي فيها إعلان عن الذات.. إنما العظمة الحقيقة هي في القلب المنتصر المملوء من الفضائل.

فليبحث اذن كل شخص عن مظاهر العظمة الخارجية التي يقع في شهوتها ويسعى إليها. لكي يتتجنبها.. إن أراد أن تكون للميلاد فاعلية في حياته..

من دروس الميلاد أيضاً : الاتضاع

إن ميلاد السيد المسيح هو أكبر درس في الاتضاع. وقصة الميلاد بدون اتضاع. تفقد جوهرها.. سواء في ظروف الميلاد التي أخلي فيها ذاته من كل مجد عالمي. أو حياته حوالي ثلاثة عاماً وهي تكاد تكون مجهلة لكثيرين. على الرغم مما حدث فيها من معجزات في فترة مجئه لمصر..

واتضاع السيد المسيح. كان معه اتضاع امه العذراء أيضاً. فإن أردنا الاحتفال بالميلاد. فلنحتفل بالاتضاع فيه وفيينا.

ولنبحث ما هي أعماق الاتضاع. وكيف تكون وكيف نحياتها؟ وما هي الأمور التي تضاد الاتضاع في حياتنا لكي نتجنبها؟ لأنه ما الفائدة في أن ننظر إلى اتضاع السيد المسيح دون أن نتشبه باتضاعه على قدر طاقتنا؟!

أليس أنه ترك لنا مثلاً. حتى كما سلك هو. نسلك نحن أيضاً..!

من دروس الميلاد أيضاً: البساطة

نلاحظ في قصة الميلاد أن السيد المسيح له المجد - لما بدأ رسالته - اختار له تلاميذ بسطاء. غالبيتهم من الصياديـن. ولكنهم كانوا أبراً ولهم قلوب مستعدة لحمل الرسالة. كما أن بشارة الميلاد أعلنت لجماعة من الرعاة البسطاء. ولكن كانت لهم بساطة الإيمان وعمقه. ولم تعلن هذه البشارة لكثيرين من القادة كالكتبة والفرسيـين وكهنة اليهود وشيوخ الشعب.. فلماذا؟

ذلك لأن أسرار الرب. إنما تُعلن لقلوب بسيطة تفرح بها.

إن المجروس والرعاة كانوا بسطاء القلب. لما سمعوا ببشرة الميلاد. صدقوا وآمنوا وفرحوا. وإنذهب المجروس الي المزود وقدموا هداياهم..

أما الكبار فلم تكن قلوبهم مستعدة ولا بسيطة. مثال ذلك هيرودس الملك. الذي لما سمع الخبر "اضطرب وكل اورشليم معه". واستخدم الفحص والاستقصاء. وأيضاً الحيلة والدهاء في كيف يقتل المولود!!

فهل أنت أيها القاريء العزيز لك بساطة الإيمان. التي تستطيع بها أن تقبل أسرار الرب ومعجزاته؟

إن القديسة العذراء كانت لها بساطة القلب. فأمنت بما قيل لها من قبل الرب عن طريق ملاكه. وصدقـت أنها ستلد وهي عذراء. فكانت لها هذه البركة.. وكذلك يوسف النجار أيضاً آمن بأنها حبلي من الروح القدس..

والمجروس علي الرغم من أنهـم كانوا حـكماء وعلمـاء. إلا أنهـم كانوا أيضـاً بسطاء في قلوبـهم. ولم يكن لهم مـكر هـيرودـسـ الملكـ وخـبـتهـ. لذلك استحقـوا هـمـ أيضاًـ أنـ يـرواـ المـسيـحـ وـيـنـالـواـ بـرـكـتـهـ.

وعـلـيـ الرـغـمـ مـنـ أنهـمـ رـأـوهـ فـيـ مـزـودـ. إـلـاـ أنهـمـ آـمـنـواـ وـقـدـمـواـ هـدـاـيـاهـ.

وـهـنـاـ نـسـأـلـ :ـ هـلـ نـحنـ نـسـلـكـ بـيـسـاطـةـ إـيمـانـ.ـ أـمـ بـتـعـقـيدـ وـشكـ؟ـ

إن العالم المعاصر - للأسف الشديد - فيه الكثير من التعقيد باسم العلم! فكثيرون ينكرون المعجزات. وينكرون صحة الرؤى المقدسة. لذلك إذا ما حدثت أمامهم لا يصدقونها! بل بعضهم ينكر القيامة أيضاً. وهكذا وجدت فجوة بين الدين. وبعض الفلاسفة والعلماء. إننا نؤمن بالعلم، ولكننا لا نحب في الأمور الخاصة بالله ومعجزاته. أن فقد بساطة القلب. فالبساطة كنز عظيم. من الخسارة أن نضيعه.

والبساطة هي غير السذاجة. فمن الممكن أن تكون بسيطاً وحكيمًا.

البساطة هي عدم التعقيد. وليس عدم التعلق. وهي تتماشي مع حياة الإيمان. وبها نقبل ما يقوله الله. دون أن تكون رقباء على عجائبه.

وفي احتفالنا بالميلاد. نذكر المبادئ السامية التي نادي بها المسيح:

ولعل في مقدمة ذلك : المحبة والسلام. جاء المسيح ينشر الحب بين الناس. وبين الناس والله. ويقدم الله للناس أباً محبًا. يعاملهم لا كعبيد. بل كأبناء. ويصلون إليه قائلين "أبا الذي في السماوات". وهم في الحرص على محبته. يعملون بوصاياه. لا خوفاً من عقوبة. بل حباً للخير.

وهكذا قال السيد المسيح إن جميع الوصايا تتركز في وصية واحدة وهي المحبة "حب الرب إلهك من كل قلبك. ومن كل فكري. ومن كل قدرتك. وتحب قريبك كنفسك" بهذا تتعلق جميع الوصايا.

إلي حوار المحبة. جاء المسيح أيضاً ببشرة السلام:

سلام بين الناس. وسلام بين الإنسان والله. وسلام في أعماق النفس من الداخل. سلام من الله يفوق كل عقل.

وعلم بأن الصلح أفضل من تقديم القرابين. فقال : إن قدمت قربانك على المذبح. وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك. فاترك قربانك قدام المذبح. واذهب أولاً اصطلاح مع أخيك".

وفي سبيل السلام بين الناس. دعوهم تعاليم المسيح أن يكونوا مقدمين بعضهم بعضاً في الكرامة.

إن العالم بميلاد المسيح قد بدأ عصراً جديداً. يتميز عن كل ما سبقه من عصور. وأصبح الميلاد المجيد فاصلاً بين زمنين متمايزين: ما قبل الميلاد. وما بعد الميلاد.